تعقيبات

واجبنا فى الجهاد الثقافى :

قام الخبير الاقتصادى المصرى فى السودان برحلة إلى بعض أرجاء الشطر الثانى من الوادى فكان مما لاحظه أن وجد المكاتب غاصة بالمؤلفات الإنجليزية وأن هناك عناية مقصودة بتغذية السودانيين بتلك المؤلفات وبجميع الألوان الثقافية التى تصدر من لندن . . على حين وجد المؤلفات العربية التى تصدر فى مصر قليلة ، بل نادرة ، وأنه ليست هناك أية عناية فى تقديم ألوان الثقافة العربية المصرية إلى أبناء السودان ، مع أنها الثقافة التى تتصل بطبيعتهم وتلائم وضعهم وروحهم .

لم ينشر هذا الكلام فى الصحف ، وإنما حدثنى به « عليم ببواطن الأمور » كما يقولون فى لغة الصحافة ، ولست أدرى هل كتب الخبير الاقتصادى المصرى بهذا إلى الحكومة المصرية أم لا ، وعلى أى حال فانى أرجو أن تتدبر الأمر ، وأن تبذل له حكومة وشعباً وكثيراً من العناية ، لأنها ناحية ترتبط أشد الارتباط بما نجاهد له سياسياً فى دعم وحدة الوادى وجعل أبناء النيل كما خلقهم الله لحمة واحدة ، ونحن نعرف أن الانجليز يتخذون من الثقافة أداة استعمارية يفككون بها روابط الشعوب ، فهم يحاولون أن يغذوا أبناء الجنوب بثقافتهم حتى يكونوا بعد جيل واحد غرباء عن قومهم غرباء فى أوطانهم .

فمن الواجب على وزارة المعارف فى مصر أن تتولى تنظيم هذا الأمر ، فتصدر إلى هناك الكتب والمؤلفات وتنشىء المكاتب لتوزيعها وتقديمها ، ولا بأس أن تتحمل الوزارة جانباً من ثمن المؤلفات حتى يستطيع أبناء السودان الحصول عليها فى يسر وسهولة .

هذا واجب على وزارة المعارف ، وهو واجب أيضاً على جميع الهيئات الثقافية فى مصر ، وعلى رجال الفكر والثقافة ، بل إنى أدعو إلى تأليف لجنة من رجال العلم والفكر تتولى العناية بهذا الأمر وتجمع التبرعات الوطنية لتنظيمه والاتفاق عليه .

وأقول الوطنية لأننا بإزاء عمل وطنى يجب علينا الجهاد له كما نجاهد فى ناحية السياسة .

فهيا قبل فوات الأوان ، وقبل أن يفرق الإنجليز بثقافتهم أبناء السودان . .

الاستشراق البريطانى :

قرأت فى الأنباء الخارجية هذا الأسبوع نبأ وارداً من لندن يقول إن ثمة « تعديلات ستحدث فى معاهد تدريس الآداب الشرقية بإنجلترا حيث تزداد الرغبة ويشتد الإقبال على هذا العلم الذى لم يكن فيما مضى سوى ميل خاص واتجاه شخصى عند بعض الأفراد من العلماء المستشرقين فكانوا يتجهون إلى دراسة علوم الشرق وآدابه استجابة لميلهم الشخصى ، أما اليوم فإن الحكومة البريطانية ترعى هذه الناحية وتشجعها وتبذل المال والمساعدات فى تنظيمها وتوسيع نطاقها كما أن الجامعات والمجامع العلمية تقوم من جانبها بجهد وافر فى هذا السبيل . »

« والفكرة فى الاستشراق الآن عند الحكومة البريطانية هى الوقوف على روح الشرق وتفهم سياساته وعاداته واتجاهاته حتى يكون المستشرقون على صلة متينة مع الأقطار الشرقية التى يتخصصون فى دراسة علومها وآدابها »

« ويتجه الرأى إلى ضم المجامع العلمية وتوحيد جهودها لخلق مركز عام ثابت فى لندن للاشراف على دراسة الآداب والعلوم والفنون وسائر ألوان الثقافة فى القارة الآسيوية ، وقد وضعت فعلا التقادير بما سيكون عليه هذا النظام واعتمد لذلك المال المطلوب ... »

ويقول النبأ « إن هناك لجنة ستعمل على توسيع مدرسة الآثار فى فلسطين وفى بغداد ، وذلك لتهيئة المعلومات اللازمة لعلماء بريطانيا فى العالم العربى ، كما أن هناك اقتراحات لإنشاء مدرسة من هذا القبيل فى القاهرة تكون على اتصال وثيق بالمجمع العلمى المصرى ، ومن المحتمل إنشاء مدرستين مماثلتين فى إيران وتركيا . . »

تلك هى خلاصة ذلك النبأ الذى أذيع أخيراً من لندن فلم يلتفت أحد إليه ، ولم يحرك جارحة عند أبناء الشرق مع أنه على

جانب كبير من الخطورة ، لأنه يتضمن السياسة الثقافية التى رسمتها إنجلترا لنفسها نحو الشرق ، ويعلم الله أن إنجلترا لا يعنيها فى كثير ولا قليل الاهتمام بأرباب الشرق وعلومه إلا أن تجعل من ذلك وسيلة إلى غاية أخرى ، وهى الغاية التى يشير إليها ذلك النبأ والمقصودة بتوجيه الاستشراق إلى « تفهم روح الشرق والوقوف على سياساته واتجاهاته . »

إنها لاشك خطة مدبرة لمعاونة السياسة البريطانية فى اتجاهاتها وإنها لاشك خطة مدبرة للسيطرة على الشرق من الناحية الثقافية وإنها لاشك خطة يعرف كل منا ما وراءها ، ولكن ماذا صنعت حكومات الشرق بإزاء ذلك ، وماذا صنعت جامعات الشرق وجماعاته لوضع سياسة ثقافية تقوم على التعاون والدراسة الشاملة الناقدة حتى تقطع على الخطة الإنجليزية « الثعلبية » الطريق فيما تقصد إليه ؟ !

لقد تيقظ كل شعب وكل فرد ، فتيقظوا أيها القوم واتعظوا بما مضى من عبر ، واخرجوا من دائرة « الروتين » الذى كاد يخنقكم .

الكاتب المنشىء والكاتب الحاسب :

... وأعود إلى موضوع الكاتب المنشىء والكاتب الحاسب فأشكر لأستاذى الجليل السيد « السهمى » ما أفادنيه من زاخر علمه ، وللصديق الكريم الأستاذ « على » ما أمدنى به من وافر محصوله ، فوقفنى السيد الجليل على ما تضمنه « الامتناع والمؤانسة » من حديث عن تينك الصناعتين ، وأرشدنى الصديق إلى ما ورد فى « الفرج بعد الشدة » من قصة هى من هذا القبيل .

وقد كنت وقفت على هذا كله وعلى كثير من أشباهه وكنت أعرف أن « للتوحيدى » رسالة اسمها « رسالة العلوم » عرض فيها لهذه المسألة ، وفى « مقابساته » شذرات من هذا القبيل ، ولكنى اكتفيت بالإشارة إلى هذا فيما كتبت به إلى الدكتور زكى مبارك إذ قلت : « إن الفكرة فى الموازنة بين الكاتب المنشىء والكاتب الحاسب قديمة فى الأدب العربى . وتسبق الحريرى بأجيال وأزمان . والواقع أن الحريرى وجد مادة متوفرة لتلك المناظرة التى عقدها حتى الأوصاف التى خلعها على الكاتب المنشىء والأخرى التى وصف بها الكاتب الحاسب قد أخذها كلها عن الكتاب السابقين ، وليس له فيها من فضل إلا المقابلة والمزاوجة وإيثار السجع فى التعبير .. »

ولم أكن أقصد إلا تصويب ما قضى به الدكتور مبارك للحريرى من السبق فى ذلك ، حتى زعم أن « فكرته فى هذه الموازنة لم يسبقه إليها باحث من المسلمين » ، ولم أقصد إلى إيراد كل ما وقفت عليه من النصوص فى ذلك ، لأن المقام لا يتسع له . ولأن الفكرة فى تلك الموازنة قد أصبحت فى هذا العصر « غير ذات موضوع » كما يقولون فى لغة السياسة ، وليس لما قيل فى هذا من قيمة إلا القيمة التاريخية ، إذ لا يخفى أننا اليوم نقدر لكل علم مرتبته ومقامه وقد انتهينا فى تقسيم العلوم وتقدير مراتبها إلى وضع جديد مغاير لما كان عليه السلفيون .

وبهذه المناسبة أذكر طريفة تاريخية ذكرها الشيخ الجبرتى فى تاريخه ، وهى أنه لما تولى على مصر أحمد باشا المعروف بكور قابله صدور العلماء فى ذلك الوقت وهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى ، فتكلم معهم وناقشهم ثم باحثهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا لا نعرف هذه العلوم ، فتعجب ، ثم قال : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء إليها فلما جئتها وجدتها كما قيل : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ، فقال له الشيخ الشبراوى : هى يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف ؛ فقال : وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم شيئاً رغبة تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، فقال الشيخ : إن غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث وعلم الحساب .

وبعد مناقشة طويلة بين الوالى والشيخ دله على والد الشيخ الجبرتى وكان متحققاً بالعلوم الرياضية فوجد الوالى عنده ضالته فقربه إليه وصار يأخذ عنه مسائل تلك العلوم ؛ وكان يقول لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بذلك الأستاذ ؛ وكان الشيخ الشبراوى كلما تلاقى مع والد الجبرتى قال له « سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حمير . فرحم الله الجميع »

إى والله هكذا ختم الجبرتى روايته بهذه العبارة ...

« الجاحظ »